أزمــة روحيـــة

محاضرة للأخ عصام العطار في المؤتمر السادس لاتحاد الطلبة المسلمين في أوروبا والمؤتمر الأخير لرابطة الطلبة المسلمين في فرنسا ..

إنَّنا نتحدّث كثيراً عن حاجة المسلمين إلى المال ، أو القوّة الماديّة ، أو الاختصاصات العلميّة المختلفة ، الفلسفيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة وغيرها .. لإقامة حكم الله عزَّ وجلَّ ، ولا نتحدّث إلاّ قليلاً جدّاً عن حاجة المسلمين إلى صدق الإيمان بالله تعالى ، وتمتين الصلة به ، وخلع كل ما يُعْبد من دونه ، وامتثال أمره ونهيه ، وتحرّي مرضاته في كلِّ عمل ، وإرادة وجهه في كلّ قصد .. مع أنّنا إن لم نؤمن بالله حقّ الإيمان ، ولم نربط قلوبنا به ، ولم ننظر من وراء كلّ عمل إلى مرضاته ، لم ننتفع بكلّ ما سوى ذلك ، ولم تفدنا الوسائل إنّ صارت في أيدينا الوسائل .. وكم رأينا المال في أيدي بعض المنعوتين بالإسلام مَفْسَدَةً لهم ، ومَهْلَكَةً للدين والْخُلُق ، وكم رأينا الفكرَ والعلمَ مطيّةً للأغراضِ والمنافعِ الحقيرة ، بل كم رأينا من العلماء بالإسلام نفسه من يضعون أنفسهم في خدمة أعداء الإسلام ، ويحاربون أولياءه ، ويشترون بآيات الله ثمناً قليلاً ؛ مكسباً أو منصباً أو مالاً أو جاهاً أو عَرَضاً زائلاً ومتاعاً فانياً من متاع هذه الدنيا ..

لا بدَّ إذن قبلَ كلِّ شيء من الإيمانِ الصادق ، والعبوديّةِ الخالصة ، والمراقبةِ الدائمة ، وأن تكونَ كلُّ حركةٍ من حركاتِنا ، وكلُّ طاقةٍ من طاقاتِنا ، لله عزَّ وجلَّ .. وعندما تكونُ الوسائل الأخرى نافعةً لنا في إرضاء ربّنا ، وبلوغ أهدافنا ، وتحقيق غايتنا ، وإصلاحِ دنيانا وآخرتِنا .. بل إنَّنا عندما نُسْلِمُ لله عزَّ وجلَّ حقّاً وصدقاً ، وننقادُ لما أمرنا في كتابه وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلّم ، لا بدّ لنا من اتخاذِ الأسبابِ ، واستكمالِ الوسائل ، طاعةً لله ، وامتثالاً لأمره ، وإقامةً لدينِه وحكمه .

ولم يكنِ السرُّ في انتصارِ المسلمينَ الأوّلين ، ونجاحِهم في تحقيقِ أهدافِ الإسلام ، أنَّهم ملكوا الوسائل ، فهم إنَّما ملكوها بفضلِ إيمانِهم ، واتّباعهم ، واستجابتهم لمتطلّباتِ دينهم .. إنّما سِرُّ النجاحِ والنصر أنَّهم بإيمانِهم الصادق الخالص ، وبانصِياعِهِمُ الكاملِ لأمر الله عزَّ وجلَّ ، ورغبتِهمُ العميقةِ في مرضاتِه وثوابه ، قد تَوَفَّر عندهم الاستعدادُ التَّامُّ لتلبية كلّ حاجة من حاجات الإسلام ، والنهوض بكلّ مطلبٍ من مطالبه ، مهما كانت المشقّة والتضحية

لقد احتاجَ الإسلامُ إلى الدعوة ، فكانَ المسلمونَ خيرَ دعاة ، وأجرأَ دعاة ، وأصبرَ دعاة .. بلَّغوا رسالةَ الله بأقوالِهم وأفعالِهم وواقِعهم ، وشَقّوا لها الطريقَ في أصعبِ الظروف ، وأعظم المخاطر ، لم يرهبْهم الوعيدُ والتهديد ،

و لم يَثْنِهِمْ ما أصابَهم من المشركينَ في أنفسهم ، وفي أهليهم ، وفي أموالهم ، وفي إخوانهم ، وصَـبَروا علـى الأذى المرير ، والبلاءِ الشديد ، دونما أملٍ بعونٍ من الأرض –وقد تَكَالَب عليهم أهلُ الأرض– ولا رجاءٍ إلاّ بالله عزَّ وجلَّ ، وبما عندَ اللهِ من ثواب ..

واحتاجَ الإسلامُ إلى الدم يُبْذَلُ من أَجله ، دفاعاً عنه ، وقتالاً لأعدائه ، أعداءِ الحقّ ، وجنـدِ الباطـل ، وعبيـدِ الأهواءِ والمنافعِ والمطامع ، الكائدينَ له ، المتظاهرينَ عليه ، المستكبرينَ الطاغين .. فاستبق المسلمونَ في بَذْلِ دمائِهم ، وتقديمِ حياتِهم ، و لم يروْا في الشهادةِ –عندما كانتْ تُكْتب الشهادة– إلاّ انتصاراً وفوزاً دونَه كلُّ فوز ، وظفراً بما يتطلّعون إليه ، ولا يعدِلون به غيرَه ، من رضا الله ، وجنّةِ الخلد .. واحتاجَ الإسلامُ إلى المال ، فقدّموا المـالَ كمـا قدّموا الأرواح ، و لم يضنّوا بما حصّلوه ، وتعبوا فيه ، وكانوا أحوجَ ما يكونُ إليه و لم يبخلوا أن يُنفِقوا ما أنفقـوا ، وأن يتحمّلوا من الشّدة والحرمان ما تحمّلوا ، طَيِّبةً نفوسُهُم ، راضيةً قلوبُهم ، مستيقنين أعظمَ الرِبْح عندَ الله ..

واحتاجَ الإسلامُ على توالي القرونِ إلى ضروبٍ من المعارفِ والدراساتِ والجهـودِ العلميّـة لفهمـه ، وتبيـانِ أحكامِه ، وتوجيهِ الحياةِ –بجوانبها المختلفة– بهديه ، وتطويرِها في حـدوده ، والـدفاع عنـه ، وكـشفِ باطـلِ الْمُتَشَكِّكينَ فيه ، والمفترينَ عليه ، والزائغينَ عن طريقه القويم ، فنهض المخلصونَ من أبنائهِ بذلك أحسنَ نهوض ، و لم تكن مبادرتُهُم لسدِّ هذه الثغرة أبطأَ من مبادرتِهِمْ إلى الجهادِ بالمال والنفس ، ولا عملُهم أقلّ ، ولا عزمُهم أضعف

واحتاجَ الإسلامُ إلى كثيرٍ غيرِ ذلكَ في تبليغِ دعوتِه ، وإقامة حكمه ، فوجدَ دائماً من يَسُدُّ حاجتَه على أكمـلِ وجه ، بدافع ذاتيٍّ أصيلٍ عميق ، ورغبةٍ صادقةٍ جارفةٍ ، لا تقفُ أمامَها العوائق ، ولا تكبر عندها التضحياتُ الجِسَام ..

☆ ☆ ☆

و لم يبدأ الإسلامُ دعوتَه بالفروع ، لكن بدأها بالجَذْرِ وبالأساس

لم يطالبِ الناسَ أوّلَ ما طالبَ بالدعوة ، ولا بالقتال ، ولا بالزكاة ، ولا بالصوم ، ولا بترك الخمر والميـسر .. وإنّما طالبهم أَوَّلَ ما طالبَ بالإيمانِ بالله ، وتوحيدِه ، وخلع ما يعبدونَ من دونه .. لقد بدأ بالعقيدةِ و لم يبدأ بغيرِها من التكاليف ، لأنّها الأساسُ الذي يُبْنَى عليه كلُّ تكليف ، وبدأَ بالباطنِ لا بالظاهر ، بقلبِ الإنسانِ وفكرِهِ قبلَ كلِّ شيء ، لأنّه من هناك يبدأُ التغيير ويكونُ الانطلاق ..

لَمّا أمرَ اللّهُ رسولَه صلى الله عليه وسلّم بإظهارِ دينه ، وبأن يَصْدَع بما جاءَه منه ، وبأن يُبادِيَ النـاسَ بـأمرِه ، ويدعوَ إليه صَعِدَ الصفَا ونادى :

يا معشرَ قريش! قالت قريش : محمدٌ على الصفا يَهْتِف ، وأقبلوا عليه يسألونَهُ ما لَهُ ، فكانَ ممّا قال :

« يا بني عبدِ الْمُطَّلِب ، يا بني عبدِ مَنَاف ، يا بَني زُهْرة ، يا بني تَيْم ، يا بني مَخْزوم ، يا بني أَسَد ، إنّ اللّهَ أمرني أن أُنْذِرَ عشيرَتِيَ الأقربين ، وإنِّي لا أَمْلِكُ لكم من الدنيا منفعة ، ولا من الآخرةِ نصيباً ، إلاّ أن تقولوا : لا إلـــه إلاّ الله »

ولّما اشتكى أبو طالب ، وبلغ قريشاً ثِقَلُه ، مَشَوْا إليه –كما قال ابن عباس– وهمْ أشرافُ قومِه ، فقالوا : يا أبـــا طالب ، إنّكَ منّا حيثُ قد علمت ، وقدْ حضرَكَ ما تَرى ، وتَخَوَّفْنا عليك وقد علمتَ الذي بيننا وبينَ ابنِ أخيك ، فادْعُهُ فَخُذْ له منّا ، وخذْ لنا منه ، لِيَكُفّ عنّا ، ونكفّ عنه ، ولِيَدَعَنا ودينَنَا ، وندعَه ودينَه

فبعثَ إليه أبو طالب فجاءه ، فقال : يا ابن أخي ، هؤلاء أشرافُ قومِك ، قد اجتمعوا لكَ لِيُعْطُوكَ ولِيَأْخُـــذوا منك

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم :

« نَعَم ، كلمةٌ واحدة تُعْطُونِيهَا ، تَمْلِكُونَ بها العرب ، وتَدِينُ لكمْ بها العَجَم »

فقال أبو جهل : نعمْ وأبيكَ ، وعشرُ كلمات

قال :

« تقولون لا إله إلاّ الله ، وتَخْلَعونَ ما تَعْبُدون منْ دونه » .

وما أروعَ هذا الحديثَ الذي يُرْشِد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلى نقطة البدْء ، وقطبِ الرحى في هداية الناس وإصلاح أحوالهم :

« ... **ألاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّـــهُ ألاَ وَهِـــيَ الْقَلْب** » رواه البخاري ومسلم

☆ ☆ ☆

وهذا المنهجُ الذي نَهَجَه رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، هو منهجُ الرسلِ جميعاً في الـــدعوة إلى الله ، وإقامـــةِ شرعه ، وهو المنهجُ الذي يلائمُ فطرةَ الإنسانِ التي فطرَهُ الله عليها ، وما سَنَّ اللّهُ في خلقِهِ من السُّنَن .

يقول عزَّ وجلَّ :

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ...﴾ [النحل :٣٦]

ويُفَصِّلُ لنا تعالى بعضَ ذلك فيقول :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون :٢٣]

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ۞ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون :٣١-٣٢]

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون :٤١]

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى ...﴾ [المؤمنون :٤٤]

يَتَتَابَعونَ على تبيانِ هذه الحقيقةِ الخالدة ، وعلى الدعوةِ إليها ، وتقريرها ، وترسيخها في القلــوب والعقــول ، رسولاً بعدَ رسول ..

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء :٢٥]

إلى أن ختمَ تعالى رُسُلَه بمحمد صلى الله عليه وسلّم فأمرَهُ أن يقول :

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْــتَغْفِرُوهُ وَوَيْــلٌ لِلْمُــشْرِكِينَ﴾ [فصلت :٦]

☆ ☆ ☆

وعندما آمنَ المسلمون الأوّلُونَ بالله وبالرسول وباليوم الآخر ، انقادوا انقياداً طبيعيّاً لكلِّ ما جاءهم به صــلى الله عليه وسلّم ، في خَوَاصِّ أنفسِهِمْ ، وفي علاقاتِهم بمجتمعِهم ، مؤتمرينَ بما أمرَ به ، منتهين عمّا نهى عنــه ، و لم يحــتجِ الأمرُ إلى إقناعٍ جديدٍ بكلِّ تكليف ، وإلى مشقّةٍ كبيرةٍ في إنفاذِ كلِّ حكم .. عندما حَــصَلَتِ المقــدِّماتُ أعقَبَتْهــا النتائج ، وعندما ثَبَتَ الأصلُ الحيُّ في الأرض امتدَّتِ الفروعُ إلى السماء ، وعندما رسَخَ أساسُ البِنَاء أمكَنَ أن يقــومَ البناءُ السامقُ المتين .. ، ولو لم يكنِ الإيمانُ أوّلاً لَمَا كانت لوازمُه ، لو لم يَكُنِ الأصلُ ما كانتِ الفروع ، لو لم تكنِ العقيدة ، ما كانتِ الشريعة ، وما كانتِ الأمّة ، وما كانتِ الدولة ..

ولا بدَّ أنْ تكونَ للإيمانِ الصادقِ لوازمُهُ وآثارُه ؛ الدّاخليّةُ في القلبِ والفكرِ والضمير ، والخارجيّةُ في كلِّ مظاهرِ السلوكِ الخاصّ والعام وأنْ نَلْمَس هذه اللوازمَ والآثار .

قال تعالى :

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۞ أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال :٢-٤]

وقال تعالى :

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات :١٥]

وقال تعالى :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَنَصَرُوا أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال :٧٤]

وقال : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة :٧١].

ودلَّ الله تعالى رسولَه الكريم على من يُكَذِّبُ بالدين ، بأعمالِه السيِّئةِ الفاسدةِ المخالفةِ لما شَرَع الله ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۞ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۞ وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون :١-٣] إذ لو كانَ يؤمنُ بالله حقّاً وصِدْقاً ، وبقيامِهِ المؤكَّدِ بينَ يديه ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ ...﴾ [آل عمران :٣٠] لاستحى منه ، وخافَ عقابَه : أن يَدُعَّ اليتيم ، ولا يَحُضَّ على طعامِ المسكين ، ولَطَلَبَ ثوابَه وتقرَّبَ إليه بتركِ ما فعل ، وفعلِ ما ترك من البرِّ والخير .

☆ ☆ ☆

وإذا خلا قلبُ المسلمِ من الإيمانِ بالله ، انعدمتْ لوازمُهُ عندَه ، وماتَ الإسلامُ في حياته ، وانتهى عملُه من أجلِه ، كالشجرةِ التي اجتُثَّ جَذْرُها ومصدَرُ حياتِها ونمائِها ، وأساسُ بقائِها ، فإنّها تَذْبُل وتموت ، وتَتَحَوَّلُ إلى حطبٍ يابسٍ لا يَصْلُحُ إلاّ للحرق .

وإذا نقصَ الإيمانُ في قلبه ، وضَعُفَتْ صِلَتُه بربِّه ، ووهَنَ ارتباطُه به ، وانصرفتْ نفسُهُ إلى الدنيا ، وآثرَها بحبِّهِ وسَعْيِه ، ذَبُلَ الإسلامُ في حياتِه ، وأصبحَ رَسْماً حائِلاً لا حرارةَ فيه ، ولا رُوحَ له ، وتراجَعَ عندَهُ إلى مرتبةٍ مُتَأَخِّرة ، ولَمْ يَعُدْ يصدُرُ عنه ، أو يقيسُ به ، أو يجدُ حلاوةَ العمل له ، والتضحيةِ من أجله .. بل إنّه ليستكثِرُ عليه كلّ جهد ، ويستغلي كلَّ بذل ، ويُحِسُّهُ عبئاً ثقيلاً على كتفيه وحاجزاً في وجهه دونَ ما يشتهيه ، فهو يَتَخَفَّفُ منه خطوةً بعد

خطوة ويوماً بعدَ يوم ، ولا يستبقي إلاّ أشكالاً مَيِّتَةً لبعضِ أجزائه التي لا تتعارض في ظاهرِ الأمر -أو لا يَسْمَحُ لهـا بأن تتعارض- مع أهوائِه وشهواتِه ومصالحِه الدنيويَّة غيرِ المشروعة .. وهو يُحَكِّمُ فيهِ هـذه المـصالحَ والـشهواتِ والأهواء ، فيقبلُ منه ويَرْفض ، ويَأْخُذُ ويدَع ، ويُغَيِّر ويُبدِّل ، ويطيعُ فيه الناسَ ولا يطيعُه في الناس ، و لا يَشْعُرُ نحوَه بأيِّ تَبِعَة ، ولا يُحِبُّ فيه أحداً ، ولا يُبْغِض أحداً ، فإذا أحبَّ فيه أحياناً أو أبغض ، في أمورٍ لا تَدْخل فيها مصلحتُهُ أو هواه ، لم يتجاوز ذلك قلبَه إلى مُوَالاةِ من يحبّ ومعاداةِ من يبغض ، بل ربّما وقفَ مع أعداءِ الإسـلامِ يحـاربُ معهم الإسلام ، إيثاراً للسلامة ، أو طمعاً في الغنيمة ، أو مجاراةً للتيّار ، وتزلّفاً لبعض الناس ..

وهذه هي حال كثيرٍ من المسلمين الآن .. وقد نجدُ فيهم أصحابَ الذكاء ، وأصحابَ المهـارة ، وأصـحابَ المعرفة ، وأصحابَ الاختصاصات .. ولكنَّها مواهبُ مصروفةٌ في غيرِ طريقِ الإسلام ، معطَّلَةٌ عن خدمته ، والعمـلِ لتحقيقِ أهدافِه .. مُسَخَّرَةٌ في كثيرٍ من الأحيانِ لحربه ، والتمكينِ لمذاهَب وأوضاعٍ مناقضةٍ له .. ولا سبيلَ إلى تبديلِ هذه الحال ، وتحويل هذه الإمكاناتِ إلى خدمةِ الإسلام ، إلاّ أن تَتَحَوَّلَ القلوبُ إلى الله ، وتمتلئَ به ، وتخلصَ لـه ، وتتأجَّجَ بحبّه وخشيته ، ويصبحَ اللّهُ ورسوله ، والجهادُ في سبيله ، أحبَّ إلى أصـحابها مـن الآبـاء ، والأبنـاء ، والإخوان ، والأزواج ، والعشيرة ، والأموال ، والتجارة ، والمساكن ، والدنيا كُلِّها .. وتَغْدُوَ الـدارُ الباقيـةُ آثـرَ عندهم ، وأرجى لهم ، من الدارِ الفانية ، وتُنْتَزَعَ من صدورِهِمْ خشيةُ الناس ، ليحلَّ محلّها خشيةُ الله .. وبذلك تَدِبُّ الحياة ، بمعرفةِ الله عزَّ وجلَّ ، وبالإيمانِ الصادقِ المتدفِّقِ من القلب ، في أوصالِ المسلمين ، ويَنْبَعِثُ الإسـلامُ قويّـاً غلاّباً في حياتهم ، وتتوجّهُ طاقاتُهم إلى إعلاءِ كلمةِ الله ، وإقامةِ حكمه ، ويقعُ الانقلابُ الجذريُّ العميقُ الذي يَـرُدُّ الأوضاعَ المنكوسةَ إلى الحال السويّ .. يقع هذا الانقلابُ الأصيلُ الحاسمُ في حياتهم ومجتمعهم وأرضهم ، عندما يقعُ في أنفسِهِمْ أوّلاً ، فتتغيّرُ هذه الأنفس ، وتتوجّهُ بكلِّ طاقاتِها إلى الله عزَّ وجلَّ ، بعدَ أن تَفَرَّقَت بها السُبُل ، وكـادت تضيعُ ، وتستهلكُها الصغائر ، وتخسرُ الآخرةَ والدنيا .

لذلكَ فأنا أدعو المسلمين ، والشبابَ الغيورينَ ، الثائرينَ على الواقعِ الفاسد ، الْمُتَلَمِّسِينَ الطريـقَ القاصِـد .. أدعوهم إلى رجعةٍ حقيقيّةٍ -لا رجعةٍ كلاميّةٍ لفظيّةٍ- إلى الله عزَّ وجلَّ ..

أدعوهم إلى تجديدِ إيمانهم به ، وخلعِ كلِّ ما يعبدونَ من دونه ، فلا إله إلاّ الله

أدعوهم إلى محبّتِهِ وطاعتِه ، والرغْبَةِ إليه وحدَه ، لا رَغْبَةَ إلى سواه ، والرهبةِ منه وحدَه ، لا رَهْبَةَ مِمّن عـداه .. وإلى معرفته ، وتوثيقِ الصِلةِ به ، وصدقِ العبوديّة له ، وربطِ القلبِ والفكر ، وربطِ الجوارح والحياة ، بأمرِه ونَهْيِه ، وألاّ يَتَوجَّهوا بالقصدِ إلاّ وجهِهِ الكريم ، وأن يكونَ الْعَيْشُ عندَهم هوَ عيشُ الآخرة ، وأن تكونَ الدنيا طريقاً لهم إلى الله عزَّ وجلَّ ، وإلى جنّة الخلد ..

إنّكمْ -يا شباب- إذا رجعتم إلى الله هذه الرجعة الصادقة ، كنتم الأعْلَيْن ، وكنتم قَدَراً مِنْ قَدَرِ الله الذي لا يُرَدّ

إذا أردتمُ الآخرةَ هانت عليكم الدنيا ، فتحرّرتم من إسار الدنيا

وإذا عرفتمُ اللّهَ صَغُرَ عندكم مَنْ سواه ، وما سواه ، بلْ ذابَ في أعينِكم ، وفَنِيَ في قلوبِكم ، كلُّ ما عداه .. و لم يَعُدْ يستأهلُ الطَلَبَ والنَصَبَ إلاّ قربُه ورضاه

وإذا استَشْعَرْتُمْ رابطَتكُمْ بربّكم ، وعونَه لكم ، وأيقنتم أنّه معكم ، رأيتمْ أنفسَكم أقوى من كلِّ قُوى الـــشيطانِ والطغيان.

إذا رجعتم هذه الرجعة ، تحوّلتم خَلْقاً جديداً ، جديراً بحملِ الأمانة ، التي أشفقت منـــها الـــسماواتُ والأرضُ والجبال ، وبتكريمِ الله عزَّ وجلَّ ، واتّصلت أرواحُكُم من وراء القرون ، بروحِ رسولِكمْ وقائدِكم محمّد صلى الله عليه وسلّم ، وارتبطتم ارتباطاً حيّاً ، بالميامينِ من صحابَتِهِ الكرام ، والتحقتمْ بذلك الركبِ الخالدِ العظيم ، الذي يرضـــى عنه الله ، وتنفتحُ له أبوابُ الجنان ، وأصبحَ الواحدُ منكم أثمنَ في قيمتِه ، وأنفعَ لدعوتِه وأكبرَ في أثرِه ، من ملايـــينِ المسلمينَ بأسمائهم –لا بحقيقتهِمْ وأعمالِهِمْ– مِنَ المجرورين في مواكبِ الشيطان ، الْمُنْقَطِعَةِ صلتُهُمْ بالرحمن ، الغُثَـــاءِ الذي يَحْكِي غُثاءَ السيل ، لا بَقاءَ له ، ولا منفعةَ فيه .. إنّكم إذا رجعتم إلى الله كما وصفت ، وملكتُمْ هذه الـــروحَ الجديدة ، وهذه المشاعرَ الجديدة ، وهذه القدرةَ الجديدة ، وهذا التفكيرَ والتصوّر ، أمكنكم بسهولةٍ ، أن تُـــضَحّوا بالمالِ ، وبالمنصب ، وبالجاه ، وبالدنيا جميعِها ، وبالحياةِ كلِّها ، في سبيل الله عزَّ وجلَّ ، وأن تستسهلوا العقبـــات ، وتستصغروا النكبات ، وترتفعوا على الشدائدِ والمغريات ، وتستعلوا على قُوى الباطل ، وطواغيتِ الأرض ، بإيمانِكم بربِّ السماواتِ والأرض ، ولو كنتم عُزْلاً من كلِّ سلاح .

وهكذا يولدُ المسلمُ ولادةً جديدة ، مِنْ عقيدتِهِ لا مِنْ رَحِمِ أمّه ، وينبعثُ بمعرفتِهِ بالله ، وحـــرارةِ إيمانِـــه بـــه ، وتصديقِه بوعده ووعيده ، عملاقاً شامخاً ، يرتفعُ ببصره ، ويعلو بأمله ، ويسمو بواقعه ، فوقَ هذه الدنيا التي لا تَعْدِلُ عندَ اللهِ جناحَ بعوضة ، وفوقَ طغاتِها المغرورينَ المساكين ، الذين يظنّونَ أنّهم قادرون على حربِ ربِّ العـــالمين ، في مكانِهِمْ على جناحِ البعوضةِ ذاك ، وفي لمحةِ البصرِ التي يعيشونها من عُمُر الوجود .

☆ ☆ ☆

وعندما توجدُ العقيدةُ الصادقةُ في الله ، يوجدُ المسلمُ الحقّ ، لا فرقَ في ذلك بينَ عصرٍ وعصر ، ومصرٍ ومـــصر ، وجيلٍ وجيل ، وما تزال ملءَ قلوبِنا وعيونِنا وعقولِنا –ولن تزال– تلكَ الصورةُ الصادِقةُ الرائعة ، التي قدَّمَها لنا أخونا العظيم سيّد قطب ، بقلمِه في (المعالم) ، وبواقِعِهِ في السجن ، وعلى أبواب الخلود .

قال رحمة الله عليه :

{ .. تتبدّل الأحوالُ ويقفُ المسلمُ موقفَ المغلوبِ المجرّدِ من القوّةِ المادّيـــّة ، فلا يفارقُه شعورُه بأنّه الأعلى ،

وينظرُ إلى غالبه من علٍ ما دام مؤمنا . ويستيقنُ أنّها فترةٌ وتمضي ، وأنّ للإيمانِ كَرَّةً لا مفرَّ منها . وهَبْها كانتِ القاضية ، فإنّه لا يحيي لها رأساً . إنّ الناس كلَّهم يموتون. أمّا هو فيستشهد . وهو يغادر هذه الأرضَ إلى الجنّة . وغالبه يغادرها إلى النار . وشتّان شتّان . وهو يسمع نداء ربّه الكريم :

﴿ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ ۞ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۞ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ﴾ [آل عمران :١٩٦-١٩٨]{

ولقد رأينا جميعاً أخانا الحبيب ؛ الشهيدَ السعيد ؛ سيّد قطب ، في سيّارة البوليس التي نقلته ممّا سَمِّيَ : (محكمةً) إلى السجنِ الحربيّ ، بعدَ أن سمعَ الحكَم عليه بالموت

لا أستطيعُ أن أنسى تلكَ الصورةَ العظيمة المعبِّرَة .. لَكَأنَّه -رحمةُ الله عليه- لم يتلقَّ الحكمَ بالإعدام ، بل تلقّى البُشْرى بجنّةِ الخلد ، فغلبتْهُ الفرحة ، وانفرجتْ شفتاهُ عن تلكَ الابتسامةِ الباقية ، التي نطقتْ بها أساريرُه ، وأشرقَ بها وجهُهُ كلُّهُ بنورِ ربِّهِ عزَّ وجلَّ ..

إنّ هذه الصورةَ ، وهذه الابتسامةَ الرائعة ، في تلكَ الساعة ، في تلكَ الظروف ، لأَبْلَغُ من ألفِ كلمةٍ ومقال .

إنّها التجسيدُ الحيُّ للطمأنينةِ ، والرضى الكاملِ بقضاءِ الله ، والسموِّ على عَالَمِ الفَناء .

إنّها التعبيرُ القويُّ ، يفهمُهُ كلُّ إنسان -مهما اختلفَ اللسان- عمَّا فاضَ به القلبُ الكبيرُ من السعادةِ والغِبطةِ بقربِ لقاءِ الله ، وبما حقَّقَ بالشهادةِ الْمُرْتَقَبَةِ من الأمل ، ونال بها من الفوز .. والشهادةُ عندَ المؤمنِ الصادقِ فوزٌ لا شكَّ فيه ..

ومعَ سيّد قطب ، وقبلَ سيّد قطب ، قدّمَ الإسلامُ لنا أمثالَه من النماذِج الكريمةِ العظيمةِ الملهِمة ، التي ارتفع بها الإيمانُ إلى أرفعِ مستوىً يتصوّرُهُ الإنسان ، والتي انتَصَبَتْ خلالَ العصورِ الْمُتَعاقِبات ، مَناراتٍ شاهِقات ، تضيءُ للبشرِ الطريق ، وتَدُلُّ بالمثالِ الحيّ لا بمجرّدِ اللسان ، على معجزةِ الإيمان ..

لَمّا وردَ الأمرُ بسجنِ الإمامِ أحمدِ بنِ تيميّة بقلعةِ دمشق ، أظهرَ السرورَ بذلك وقال -كما نقل عنه تلميذُه العظيمُ الإمام ابنُ قَيِّمِ الْجَوْزِيَّة- :

(ما يصنعُ أعدائي بي ؟ أنا جنَّتي وبستاني في صدري أينَ رُحْتُ فهيَ معي لا تُفَارِقُني . أنا حَبْسي خَلْوَة ، وقَتْلي شهادة ، وإخراجي من بلدي سياحة ..)

وكان يقول في مجلسه في القلعة :

(لو بذلتُ مِلءَ هذه القلعةِ ذَهَباً ما عَدَلَ عندي شُكْرَ هذه النعمة ، وما جَزَيْتُهُمْ على ما تَسَبَّبُوا إليّ فيه من الخير ..)

ويقول :

(المحبوسُ من حُبِس قلبُهُ عن ربِّه ، والمأسورُ مَنْ أَسَرَهُ هواه)

ويقول في السجود :

(اللّهُمَّ أعنِّي على ذِكرِكَ وشُكْرِكَ وحُسْنِ عِبادَتِك) ما شاء الله أن يقول

ولَمّا أُدْخِلَ إلى القلعةِ ، وصارَ داخل سورِها ، نظرَ إليه وقال : ﴿ ... **فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ**﴾ [الحديد :١٣]

فقولوا لي بالله يا شباب ، كيفَ يُمْكِنُ أن يُقْهَرَ أمثالُ هؤلاءِ الرجال ؟ وكيف يمكن أن تَنْخَفِضَ هذه الجباه ؟ وكيف يمكن أن ينهزمَ الإيمانُ في هذه القلوب ؟

بالسجن ؟ والسجنُ عندَها خَلْوَةٌ تَصِلُ بأحبِّ محبوب

بالقتل ؟ والقتلُ عندَها شهادةٌ تُبْلِغُ جنّةَ الخلد

بالنفي ؟ والنفيُ عندَها سياحةٌ في دنيا الله عزَّ وجلّ

بالمحنة ؟ والمحنةُ عندها نعمةٌ تستوجبُ أعظمَ الشكر

كيف يمكن أن يُقْهَرَ هؤلاء ؟ .. وكيف لا تنتصرُ بهم دعوةُ الله ، ولا تُنالُ بهم أبعدُ الأهداف ؟ .. وقد غَدَوْا بالإيمانِ المهيمنِ عليهم شُعْلَةَ إيمان ، وأمراً من أمرِ الرحمن ، يعلو على وسائلِ أبناءِ الفناءِ ، ويصنعُ اللّهُ به ما يشاء.

ولقد أحسَّ جُنْدُ اللهِ المؤمنونَ المخلصونَ الذينَ فَرَغوا منْ أَنْفُسِهِمْ ، ووهبوا حياتَهم –كلَّ حياتِهم – لربِّهم ، فلمْ يتحرّكوا ولم يقفوا ، ولم يُعْطوا ، ولم يَمْنَعوا ، ولم يُحبّوا ، ولم يُبغضوا ، ولم يحاربوا ، ولم يسالموا ، إلاّ بهِ وفيهِ ومِنْ أجلهِ عزَّ وجلّ .. لقد أحسّوا أنّهم قَدَرٌ من قَدَرِ اللهِ الغَلاَّب ، لا تصدُّهُ ولا تَرُدُّهُ قوّةٌ في الأرض ، إلاّ أن يشاء الله

{أُتِيَ رُسْتُم (قائدُ الفرس) وهو في طريقه إلى القادِسيَّة برجلٍ من العرب فقال له :

– ما جاءَ بكم ؟ وماذا تَطلبون ؟

فقال : جئنا نَطْلُبُ مَوْعُودَ اللهِ بِمِلْكِ أرضكم وأبنائكم إن أبيتم أن تُسلموا

قال رستم : فإن قُتِلْتُم قبلَ ذلك

قال : من قُتِلَ منّا دخلَ الجنّة ، ومن بقي منّا أَنْجَزَهُ اللّهُ ما وعده فنحنُ على يقين

فقال رستم : قد وُضِعْنَا إذن في أيديكم

فقال : أعمالُكُمْ وَضَعَتْكُم فَأَسْلَمَكُمُ اللّهُ بها ، فلا يَغُرَّنَّكَ من تَرى حولَك ، فإنّكَ لستَ تُجاوِلُ الإنس ، إنّما تُجاوِلُ القضاءَ والقدر}.

☆ ☆ ☆

وبعدُ يا شباب!

فقد وضحَ لنا الْمُنطَلَقُ الصحيح .. و لم يَعُدْ مجالٌ لمخادعةِ النفسِ أو الناس ، ببعضِ أعمالٍ سطحيّةٍ أو فرعيّة ، نوهِمُ أنفسَنا بها ، أنّنا مسلمونَ نعملُ للإسلام

لا بدَّ لنا من إعادةِ النظرِ في أوضاعِنا قبلَ كلِّ شيء ، ومن موقفٍ جذريٍّ حاسمٍ صريح

هل نحنُ مع الإسلام أم لا ؟

أمّا أَنْ نَضَعَ قدماً مع الإسلامِ وقَدَماً مع التيّار ، ونُقَدِّمَ في العملِ رِجلاً ونُؤَخِّرَ أُخرى ، وننظرَ إلى الآخرةِ بعين ، وعينُنَا الثانيةُ تَطرِفُ وراءَ الدنيا ، ونرضى بأنصافِ الحلولِ بلْ بالأرباعِ والأخماسِ والأعشار .. فهذا لن يُقْبَلَ مِنّا ، ولن يَجْعَلَنا نقطةَ التحوُّلِ من الْجَزْرِ إلى الْمَدّ ، ولن يَكتبَ بنا النصر ، ولنا الجنَّة .. ولن يَجْعَلَ مِنّا إلاّ جيلاً ضائعاً ممزَّقاً يُسْلِمُ نفسَه إلى الانحرافِ الكاملِ أو إلى الدمار ..

إنْ كُنّا معَ الإسلام حَقّاً ، فلْنَرْجِعْ إلى الله .. فلنرجعْ إليه مَرَّةً واحدةً بقوّةٍ وجرأةٍ وعُمْقٍ وإخلاص ، ولْنَصُغْ حياتَنا كلَّها صِياغةً جديدةً على هذا الأساس ، ولْنَبْدَأْ معركَتَنا داخلَ أنفسنا أَوّلاً ، لِتَخْلُصَ لله ، ولينتصرَ فيها الإسلام ، ولتُصْبِحَ صورةً مُجَسِّمةً للحقّ ، وعندَها تهونُ علينا معاركُنا الأخرى .. ويكونُ للإسلام رجالُه الذينَ يمثّلونَه أصدقَ تمثيل ، ويعيشونَ له ، ويَشقُّونَ طريقه .. رجالُه الذينَ يربطونَ مصيرَهم به ، ويَحْصُرونَ وُجُودَهم في حدودِه ، فلا يكونُ لهمْ وجودٌ خارجَ إطارِه أبدا .. هؤلاء الرجالُ همُ المسلمونَ حقّاً وصِدْقا ، وهمْ مَعْقِدُ الأمل ، ومَوْطِنُ الرجاء ،

وهم الذين يَحُلّ وجودُهم كلَّ مشكلة ويُذَلِّلُ كلَّ عقبة ، ويحقّق كلَّ هدف ، ويُبَلِّغُ كلَّ غاية ، ويجعل البعيدَ قريباً ، والعسيرَ يسيراً ، والمستحيلَ –على أمثالِنا الآن– ممكِنا .. وهمُ الذين تحيا بهم الأمّة ، وتعودُ بهم إليها الروح ، وتقومُ عليهم الدولة ، وتتوفّرُ بهم لإقامتها الوسائل ، كلُّ الوسائل ، علميّة ، وفكريّة ، وهمُ القادرونَ على مواجهةِ كلّ التحدّيات ، وعلى تقديمِ كلِّ التضحيات ، وعلى الاستقامةِ على طريق الحقّ أبداً ، لا يَتَرَدَّدُون ، ولا يَتَوَقَّفُون ، ولا يَنْحَرِفُون ذات الشمال أو اليمين ، وهم الذينَ اصطفاهُمُ اللّهُ لأعلى منازلِ الكرامةِ في الدنيا والآخرة ، وكتبَ لهم من فضلِهِ أن يحملوا لواءَ الدعوة إليه ، والجهادِ لإقامة دينه وحكمه ، في أحلكِ الأيّامِ وأقسى الظروف

أَلا فَلْنُجَدِّدْ جميعاً عهدَنا لله عزَّ وجلَّ ، ولْنَسْتَغْفِرْه لما فَرَطَ مِنّا وسَلَفَ من القصور ، ولْنَبْدَأْ طريقَنا بالإيمان ، لينتهيَ بنا إلى الجنّة ، ونمتلكَ مفاتيح النصر .. ولْنُغِذَّ السيرَ ، واثقينَ بالله ، وبوعدِه الصادق الأكيد ..

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور :٥٥]